المشرق

في الحواسّ الباطنة عموما

وفي الحسّ المشترك خصوصاً

بقلم الاب لويس ارتر فال اليسوعي

لم نكد نتفرّغ من ادراج مقالتنا في تواصل الافكار (راجع المشرق ٣ : عدد ٢٢) حتى حدّثتنا النفس بمواصلة السير في ميدان الابحاث الفلسفيّة بل الاحرى باستيفاء الكلام فيما لم تكن الّا لمّحنا اليه من معرفة حواسنا الباطنة اثناء شرحنا لتواصل التصورات. فمن الظاهر الجلي لكل لبيب ان مقالاً مفرداً في باب من ابواب العلم ايّاً كان لا تتمّ فائدتهُ ما لم يُرجع الى مبادئهِ الاوليّة ولم يُشفَع بالادلّة السهلة المأخذ القريبة المتناول

وها نحن نشرع اليوم في انجاز ما رغبت اليهِ النفس وهو الاتيان بابّا بابّا على حقيقة جميع حواسنا الداخليّة مستهلّين بادناها رتبةً واقلها قدراً اعني الحس المشترك

١ في تقسيم الحواسّ الباطنة

وقبل الخوض في غوامض المسألة لا نرى بدًّا من ايراد نبذة في تقسيم الحواس الباطنة إزالةً لكل شبهة ورغبة في زيادة الوضوح. امّا احسن وسيلة لبلوغ اربنا فهو نقل ما كتب القديس توما اللاهوتي في هذا الشأن قال (١):

« لمّا كانت الطبيعة لا تمنع ضروريًا وجب ان تكون افعال النفس الحاسّة بقدر ما يكفي لحياة الحيوان الكامل فما امتنع من هذه الافعال اسنادهُ الى مبدإٍ واحدٍ فلا بدَّ لهُ من قوى متغايرة. وحياة الحيوان الكامل تقتضي ان يتصوَّر الشيء لا في

(١) راجع الجزء الاول من الخلاصة اللاهوتيّة للبحث ٧٨ الفصل ٤ من ترجمة السيد المفضال المطران بولس مسّاد

حضور المحسوس فقط بل في حال غيبته ايضاً والّا لما تحرّك الحيوان لالتماس شيء غائب لان تصوّره يستتبع حركتهُ . وبطلان هذا واضح خصوصاً في الحيوانات الكاملة التي تتحرّك حركةً تدريجيّة اذ انّنا نتحرك الى غائب متصوَّر . فاذاً يجب ان الحيوان لا يقبل فقط بالنفس الحسّاسة صور المحسوسات (يعني بالمشاعر الخارجيّة والحس المشترك) متى كانت حاضرة بل ان يستتبعها ويحفظها ايضاً (يعني بالخيال او المخيّلة) . والقبول والحفظ في الجسمانيّات يُسندان الى مبدئين متغايرين . . . »

فاذا ضربنا صفحاً عن المشاعر الخارجة ثبت من هذا الكلام السجدي انّ من الحواسّ الباطنة حاسّتين تقبل احداهما المحسوسات وهي الحس المشترك والثانية تختزنها وهي الخيال . ولكن ألا يحتاج الحيوان الكامل الى اكثر من هاتين آلةً رعدّة لسدّ حاجاته اليوميّة ؟ أفلا يخلُّ بكرم الخالق لو ترك الحيوان غير عالم نفعهُ من ضرّه لا صارف يصرفهُ عمّا فيه شرّهُ ولا هادي يهديه الى ما فيه خيرهُ ؟ فيا لتعاسة الحمَل إلَم يغرز بين الشاة التي يستقي منها ينابيع الحياة والذئب الجائع المقبل لخطفه وكسر عظامه وكذلك بؤساً لنا نحن البشر ان كنّا لا نرى خطراً في الحيّة السامّة الملتوية بين الزهور او ان كان منظر صخر منقضّ على رأسنا من علُ لا يُثير فينا ثائر التحفظ الذاتي الى غير ذلك من الامثال التي تدلُّ صريحاً على وجود حسّ غير الحواس المارّ ذكرها فشكرًا لفاطر الكائنات وحمدًا لباري الموجودات على انّهُ لم يُهمل صنع عجيبة ولم يمنع عنهُ شيئاً من مقتضيات عيشته لا بل غرز في طبيعة خلائقه الحيّة غريزةً يديه تنبئها بوجود الموافق لصالحها او المخلّ به وترشدها الى دنوّ رسول الخير او زحف العدوّ الحامل المنيّة بين انيابه او مخالبه

امّا الحواس الخارجيّة والحسّ المشترك فليسوا بشيء من هذا القبيل لان الحواسّ انما تدرك ما يبرز للخارج من لونٍ وصوت الخ . والحسّ المشترك يقرن تلك الحواس بعضها او يفصلها اما الخيال فيحفظها فاين نحن من كشف القناع عن النفع والضرّ والملاءمة والتنافر فتلك لعمري خواصّ ومزايا لا تبدو للعيان ولا تطرق الآذان ولا تؤثر في اللسان بل انها معانٍ لا يستخرجها الّا حسٌّ فُطر لمثل هذا الكشف وجُهّز لاجله وانّ هو الّا القوّة المتوهّمة (١ التي اوثرُ لها اسم « المقدّرة » او « المختبئة » تقرّبًا للفظة

١) قد اخذنا الحيرة في هذا الموضوع من تباين الكتبة واهل البحث في تسمية الحواس الباطنة

اللاتينيّة (vis æstimativa) الجارية في الاندية العلميـة

فلنسمع ثانيةً شمس المدارس لما في مقالهِ من الصراحة والبيان قال: « ثم لو كان الحيوان انما يتحرّك لما في المحسوس من اللذّة والألم لم يجب ان يُثبت في الحيوان الّا تصوُّر الصور المدركة بالحس التي يلتذُّ بها او ينفر عنها لكن لا بُدَّ للحيوان من طلب اشياء والهرب عن اشياء ليس لموافقتها او عدم موافقتها للاحساس فقط بل لمنافع او مضارّ اخرى ايضاً كما انَّ الشاة اذا رأت الذئب مقبلاً هربت منهُ ليس لسماجة لونهِ او شكلهِ بل لكونهِ عدوًّا طبيعيًّا لها او الطير يجمع الهشيم لا لالتذاذ حبّهِ بل لكونهِ مفيدًا لتعشيشهِ . فاذًا لا بُدَّ للحيوان من ان يدرك هذه المعاني التي ليس ينالها الحسّ الظاهر ولا بُدَّ لهذا الإدراك من مبدإٍ آخر لان ادراك الصور المحسوسة يحصل عن تأثير حسي بخلاف ادراك المعاني المذكورة . وعلى هـذا فادراك الصور المحسوسة انّما هو الى الحسّ الخاصّ والحسّ المشترك . . . واستبقاء هذه الصور او حفظها هو الى الخيال . . وتصوُّر المعاني التي لا ينالها الحسّ هو الى الواهمة وحفظها الى القوّة الحافظة التي هي خزانة لهذه المعاني » . فتبيَّن من الكلام ان السابق الحواس الباطنة اربع الحسّ المشترك والقوّة الواهمة او المتوهمة والخيّلة والحافظة ونحن نكتفي في مقالتنا هذه بتعريف الاولى

٢ في تعريف الحسّ المشترك وبيان خواصّهِ

هو مشعرٌ باطنيّ اليهِ تنتهي جميع افعـال الحواسّ الخمس ويُحدُّ ايضاً بانهُ قوّة جسمية مركزيّة مستوعبة لتأثيرات المشاعر الخمسة الخارجيّة جامعة لها ومغرزة بينهـا ومقدّرة اياها فقد لاح من هذا التعريف ان للحس المشترك خواصّ عديدة ذات اهميّة لانهُ بمثابة مركز عامّ تنجذب اليهِ تأثيرات سائر الحواس فتسرع اليهِ بعد مرورها بالحواسّ الخمس وكاني بهِ محطّة كبرى تنتهي اليهـا جميع الاسلاك المتشعّبة بين المراحل الثانويّة فلا قرار للقطارات السائرة عليها إلّم تستقرّ في رحبى ذاك المجتمع الواسع الشامل . امّا

ومنهم من يدعو الحسّ المشترك بالحسّ العـامّ والمصوّر والقوّة المتصوّرة ومنهم من يُلقب القوّة الحافظة لصور المحسوسات بالخيـال او الوهم والمدركة للمعاني الغير الظاهرة بالقوّة المتخيّلة ونحن نرى خصوصاً في هذا الاسم الاخير تشويشاً هيّنًا لقرب معنى لفظتي الخيال والقوّة المتخيّلة فاحببنا ان نخصص كل ما اشتق من الخيال كالمخيّلة والمتخيّلة بما يدعوهُ الافرنج imagination والوهم او القوّة الواهمة او المتوهّمة نطلقهُ على القوّة المقدّرة او المفكّرة estimative, cogitative لان مدلول الوهم الظن والتخمين وما اشبههما

الاسلاك فهي أعصاب الشعور الحاملة لتأثيرات العالم الخارجيّ الى مركز الحس . وهكذا يُستكمل فعل الشعور بحيث يجمع الحيوان شتات محسوساته ويضمّ نشرها

قال العلامة بوسويه : « مما يثبت لدينا بالاختبار اليومي ان من متفرقات الطوارق التي تطرق ابواب مشاعرنا قد يُصبح فينا شيء واحد يحسوس سيّما عند صدور الطُّرَق من مصدر واحد وعليه فمتى ارى النار ذات لونٍ معلوم واحس بلفحاتها واسمع زفير توقدها لم اقتصر على هذه افعال الاحساس الثلاثة بل اشعر ان منبع هذه التأثيرات كلها هي النار ». فتبيَّن من هذا النصّ ما للحسّ المشترك من الفوائد الجليلة في حياة الحيوان فلولاه لكانت عيشتهُ مجموع انفعالات واحساسات دون علاقة معلومة تربطها بعضها فلا احد ذا بصيرة الّا ويزكن ما في ذلك من الخلل لتصرُّفنا اليومي . ولاجلى بيان الامر فليُتح لنا ان نتخيَّل حالة انسان قد حُرم الحسّ المشترك ولنسبر غور تعاسته في بعض الظروف . فهاك مثلاً رجلاً يصادف مغنيًا يضرب بالعود في وسط جنّة فيحاء قد تأرّج عرف ازهارها الذكيّة في الفضاء فلا مشاحّة انهُ يتأثّر في اربع من حواسهِ لانهُ يرى المغني وما يحيطهُ من المحاسن الطبيعيّة ثم يسمع صوتهُ ورنّات آلته المطربة ثم يلتذّ في بدنهِ بنسيم الصبا المتلاعب في الاغصان واخيرًا يستنشق رائحة الزهور العطرة فما رأيك فيهِ ان كان معدماً الحسّ المشترك أهو سعيدٌ ما بين كل هذه دواعي السرور والهناء ألا ينقصهُ آلة ثمينة من جهازهِ الانساني . اقول انا انهُ يُعدّ رغماً عن تنعُّم كلّ من حواسهِ على حدتها انعس البشر كافةً باعتبار انسانيّتهِ لانهُ يخلو من حاسّة تُعلمهُ انّ الرجل الذي يبصرهُ جاسًّا العود هو الذي يسمع صوت ألحانهِ الشجيّة وان الروائح الطيّبة التي يستنشقها هي التي تفوح من اكمام الورد والخزام الماسة ما بين اخضرار النبات الى غير ذلك من الامور المستغربة التي من شأنها ان تجعل حالة هذا المسكين حالةً يُرثى لها . فهذه كانت حياتنا كلها لو لم ترزقنا يد الحكيم القدير قوّة داخليّة تراقب وتوحد انفعالات جميع حواسنا حتى تتبيّن لنا علاقة واضحة بين مدركات مشاعرنا على اختلاف افعالها الخاصّة

ولا يظنّن احدٌ اننا جريا فيما تقدَّم مجرى المبالغة او ركبنا جواد التخيُّلات والاوهام كلّا وانما هو عين الحق . ومما يدعم قولنا في ضرورة هذا الحسّ الكريم وَهن احتجاج من ينكرون وجودهُ فينا لانهم ينسبون التحام احساساتنا وتمييزها اما للحواس الظاهرة

او للعقل او للضمير المتعقّل اي العائد على افعاله (conscience réflexe). بيد انهُ لا احد من هذه الثلاثة يفي بالمرام فلم يبقَ الّا التسليم بوجوب آلةٍ اخرى مجهّزة حقّ التجهيز لما نحن بصددهِ

قلنا اولًا ان المشاعر الخارجيّة لا يمكنها القيام بما يباشرهُ من جمع التأثيرات وافرازها وتقديرها والدليل واضح متبادر حيث كلّ حاسّة من حواسّنا انما تدرك محسوسها الخاصّ فالبصر يميّز الالوان والسمعُ الاصوات الخ.. فمن المستحيل عليها ان تشعر بشيء من مدركات سائر الحواس. فأنّى للعين الشاخصة نحو الانسان ان تقول هذا الاحمرار وهذه الهيئة هما للرجل الذي تعي الاذن صوتَ لهجتهِ على اننا نفصل البصر عن السموع او المشموم اي نفرز بين الابيض والشجي وبين المرّ واليابس ونُحسن نسبة تلك الحواسّ الى موضوع واحدٍ اذا ما انتسبت الى واحد ونفرق بينها اذا رجعت الى كثيرين

هل يكون اذًا العقل البشري هو الجامع لشمل محسوساتنا والقاضي في اتفاقها او في تبايُنها كلًا ثمّ كلًا وقبحًا لتعليم فلسفي ان تصدّى لاثبات مثل هذه القضيّة لان فيها من الفساد والبطلان الفاحش ما تستنكف منهُ النفوس وتأنف مستشعرةً. فكيف يتسنّى لقوّتنا العقليّة الروحانية التصر الفائقة لجميع اطوار الماديّات والمتصرّفة بين المجرّدات والعموميّات ان تحكم في امر مادّي وخصوصي كفعل الشعور الحالي. نعم على عقلنا ان يأتي بتحديد الحس والاحساس والمحسوس ويستقري كيفيّتها ويبحث في نواميسها لكنهُ من الجهل المُطبق ان يُنسب اليهِ ايُّ تداخل كان في استتمام اعمال الشعور

وعليهِ فلم يبقَ الّا ان نلتجئ الى الضمير ونعجم عودهُ وهنا لا بُدّ لنا من ايراد تقاسيم الضمير لئلا ينسبنا بعض القراء الى الغلوّ والافراط في التمسك بالمبادئ الفلسفيّة القديمة فنقول: ان الضمير لفظة شائعة في اجناس مختلفة تطلق على عدة مسمّيات فاكثرها شيوعًا عند العامّة ما يرد بمعنى الذمّة اعني الضمير الادبي (conscience morale) المنتي في صلاح او فساد اعمالنا الحرّة وهو خارج عن موضوعنا الآن لا نطيل الكلام فيه. ومن الضمير ما سُمّي روحيًا بسيكولوجيًا (consc. psychologique) ويُقال لهُ ايضًا الادراك الباطني (perception intime) وهو عبارة عن قوّة توقف

النفس على افعالها وتقلباتها الحاضرة من افكار واحساسات وشعائر واعمال اختياريّة كافةً . وهذه القوّة على قسمين باعتبار وجه ادراكها للافعال الداخليّة فان وقفت على الاعمال النباتيّة او الحيوانيّة او العقلية بفعل مستقيم غير مميَّز قيل لها الضمير الابتدائي او المستقيم او الغير الصريح (conscience élémentaire, directe, confuse) وكثيرًا ما وُسمت حينئذٍ بالحس الباطني (sens intime) خصوصاً عند المحدثين (١ . اما إن أُطلق سراحها على افعال العقل او على اعمال الركب الانساني باستعمال الرويّة والتعقّل اعني بفعل الرجوع والانعكاس قيل لها عندئذٍ الضمير العائد او المتعقّل (consc. réflexe, réflexion psychologique) وما ذلك الّا الذهن البشري المنطوي على نفسه بفعل اختصّ به دون غيره تعجز عن ابرازه قوة من القوى الحيوانيّة

فلنأتِ الآن الى ما توخّيناهُ من هذه التفاصيل عن معاني الضمير فان أُريد به معناهُ الاخير اي الضمير العائد على فعله فنحن نُنكر صلاحيّتهُ للنهوض بما ينهض به الحس المشترك ونرفضهُ بتاتًا اذ انهُ لا يفتأ والحالة هذه ان يكون العقل بعينه وقد سبق البرهان على تزاهة هذه القوّة السامية من كل اختلاط في اعمال المادة الآليّة . اما اذا أُريد بالضمير نوعهُ الاسفل اي الضمير الابتدائي فلا يمكننا ايضاً التسليم بكونهِ هو الحس المشترك لانّا مهما احتجّ به اشياع هذا الزعم قد نرى في مذهبهم عدّة مشاكل تصدُّنا عن المصادقة على قولهم وهي : اولًا ان الضمير قوّة باطنة صرفة (faculté purement subjective) وعليه ان ملكها ومضارها انما هي النفس مع ما يعتورها من التغييرات فلا وصول لهُ الى ما خارج عنا البتة ومن ثمَّ كيف تصح التسوية بينهُ وبين المشترك الذي دأبهُ ادراك ما هو مختلف عنا والحكم فيهِ . ثانيًا من المقرَّر ان الضمير ليس لهُ آلة لابراز فعلهِ لانهُ ليس هو الّا فعل النفس الحاضرة لذاتها من حيث هي جوهر حائز على حياة حيوانيّة وعقلية . قال القديس توما : « ان النفس لا تبرح تعقل ذاتها دون تمييز ولا تفكير فيما يخصها بل من حيث هي حاضرة لذاتها (٢ » . اما الحس المشترك فقد اجمعت العلماء على انَّ لهُ جهازًا ومركزًا ولو لم يُتَّفق عليهما تمامًا . فأُوتم من هذا

---

١) قلنا « كثيرًا » لان هذه التسمية ترادف احيانًا تسمية الضمير اي الادراك الباطني عمومًا مستقيمًا كان او عائدًا

٢) راجع كتابهُ : lib. 2 Sent., dist. 39, q. 1. a. 1

الوجه ايضاً باب كل اختلاط بين الضمير الاولي والحس المشترك

قد بقي علينا ان نبسط الكلام في مقرّ هـذا الحسّ اي آلته الخصوصيّة دون الآلات الثانويّة التي هي الحواسّ الخمس فرددنا لو قال العلم قولهُ الفصل في هذا البحث لكن الامر عكس ذلك لانّا نرى المولّدين من الفلاسفـة قد نبذوا رأي الاقدمين في هذا الشأن الّا انهم لم يستندوا نتائجهم الى براهين قاطعة بل الى ادلّة ترجيحيّة تُبقي بعدُ مجالًا للريب والتنقيب. فهاك مذهب كبير فلاسفـة اليونان كما رواهُ آية حكماء العرب. قال الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابهِ في النفس (ف ٧) وهو يذكر ارسطوطاليس: « اما سلطان المتصورة (يريد مركز المشترك) ففي التجويف المقدّم من الدماغ واما سلطان القوّة المتخيلة ففي التجويف الاوسط واما سلطان القوة المذكِرة ففي التجويف المؤخر من الدماغ واماً سلطان القوّة المتوهّمة ففي جميع الدماغ لاسيّما في حيّز المتخيلة منهُ ». فيظهر من هذا النصّ ان الاقدمين كانوا يقسمون الدماغ الى ثلاثة اقسام مخصصين اولها للحس المشترك

اما المحدثون فمنهم بعد الامتحانات والفحص المدقّق ان ينقلوا مركز الحس المشترك او بالاحرى ان يوسّعوهُ فجعلوهُ لا في طائفة من الدماغ لكن في طول القطب او الخيط الدماغي النقاري (l'axe cérébro-spinal) بداعي انّ اعصاب الشعور لا تُحصر منهاها في الدماغ فقط بل يكون في النخاع ايضاً (moelle épinière). فمما غلب في رأي الطبيعيين انّ من المادّتين المتركب منهما الدماغ والنخاع يكون السهم الاوفر في اعمال الحس المشترك للمادّة الرماديّة (substance grise) والله اعلم

هذا ما مكّننا قصر الباع وضيق المكان من ادراجهِ في شأن اغلظ حواسّنا الباطنة واقربها للظاهرة فرغماً عن وضيع رتبة هذا الحسّ نظراً لمقام سائر رُصفائهِ من الحواس الداخليّة كالمخيلة والذاكرة فقد لاح للمطالع ما ينجم منهُ من الفوائد النفيسة في سلسلة حياتنا. فما قولك اذاً في اولائك المؤلفين الذين لا يرد في تآليفهم ولا ذكر هذه الآلة الكريمة فان كان هذا سهواً منهم فلا عذر لهم وإن قصداً « لتأتي مصنّفاتهم منقّحة ومجرّدة من خرافات الاقدمين » كما يهمون قذفهم اعظم اذ لا يتيسّر لهم استبدال الحسّ المشترك بشيء من سائر القوى الحيوانية او الانسانيّة فبئست الحطّة خطّتهم